أبو عمار الكافي والنسق الكلامي

د . عمار الطالبي
كلية الآداب ـ جامعة الجزائر

لا نعدو الحق اذا قلنا ان الخوارج لم تدرس آراؤهم العقائدية والسياسية دراسة تقارب الدراسات الكثيرة التى قام بها الباحثون عن فرقة المعتزلة وآرائها الكلامية الفلسفية أو عن فرقة الاشاعرة التى أخذت من الاعتزال بطرف ومن السلفية بطرف آخر وتوسطت بين المنهج الذى أخذ به المحدثون وبين المنهج الفلسفى الذى أغرق فيه المعتزلة ، كما أن الباحثين اهتموا بدراسة الشيعة وبتحليل عقائدها فى الالوهية والنبوة والامامة وما علق بها من عناصر غنوصية التى علقت أيضا بالباطنية الصوفية .

ولكن ينبغى أن نشير الى أن بعض المستشرقين اهتم بدراسة الخوارج وبتتبع حركتهم وتصطبغ هذه الدراسات فى أغلبها بصبغة تاريخية أو اخبارية على النحو الذى قام به فلهوزن Wellhausen فى بحثه التاريخى النقدى لحركتى الخوارج والشيعة وما قام موتيلنسكى Motylinski من أبحاث وتحقيق نصوص تتعلق بالاباضية ، بل كاد أن

يتخصص فى دراسة عقائد الاباضية وفى تاريخهم السياسى والاجتماعى سواء فى ذلك ما يتصل باباضية المغرب الاسلامى فى الجزائر وتونس وليبيا أو فى زنجبار أو فيما يتعلق باباضية المشرق وخاصة عُمان ، وكذلك ما قامت به الآنسة جواشون من دراسة مستفيضة لحياة المرأة الاباضية الاجتماعية بجنوب الجزائر أى ميزاب ٠

وقد خصص شيخ المستشرقين جولدزيهر قطعة من كتابه « العقيدة والشريعة فى الاسلام » للحديث عن الخوارج عامة وعن الاباضية خاصة ، وشارك Nallino الايطالى فى هذا المجال فكتب مقالا هاما عن العلاقة بين الاباضية فى شمال افريقيا وبين المعتزلة ، وتفطن الى ما يوجد بينهما من أوجه الاتفاق معتمدا على نصوص من كتب الاباضية نفسها ٠

وقد أحصينا المقالات التى كتبت عن الخوارج وعن الاباضية فى دراسة لنا عنهم ستنشر عن قريب والتى ذهبنا فيها الى رأى يخالف ما كان شائعا لدى المؤرخين والباحثين من أن الخوارج بدو ليس لهم منهج عقلى وبرهنا على أن الخوارج لم يكونوا من أهل الظاهر وانما كانوا ذوى منهج عقلى وتأويل للنصوص بما يتفق مع أصولهم فالمعتزلة ان هم الا تطوير لاصول الخوارج الاولى لذلك قال ابن تيمية ان المعتزلة مخانيث الخوارج وأن الاشاعرة مخانيث المعتزلة ٠

أبو عمار عبد الكافى

أ ـ حياته : هو أبو عمار عبد الكافى بن أبى يعقوب التناوتى ٠ وتناوت ـ فيما يحدثنا المرحوم الشيخ أبو اليقظان ـ نسبة الى تناوت وهى قرية من قرى وارجلان فى سدراته الواقعة جنوب الجزائر ووارجلان تسمى اليوم « ورقلة » وكانت سدراته هذه عاصمة للاباضية بعد تيهرت ، أما المستشرق لويكى Lewicki فانه يذكر أن تناوت قبيلة بربرية كانت تقيم فى بلدة نفزاوة معتمدا فى ذلك على كتاب السير للشماخى (1) ، ويقيم جزء من هذه القبيلة فى وارجلان ويمكن الجمع بين الرأيين بالقول بأن تناوت اسم لقبيلة ثم سميت بها القرية التى أقامت بها هذه القبيلة فى وارجلان ٠

(1) Lewicki (T.), Mélanges Berbères Ibadites, REI, 10 (1936), p. 278.

ويذهب المستشرق المذكور الى أن أبا عمار هو أكثـــر مؤلفى الاباضية علـما ، والواقع أننا لا نعلم عن نشأته شيئا كثيرا ، وغاية ما نعلم عنه أنه نشأ فى وارجلان فى القرن السادس الهجرى ، وكانت فى ذلك الحين مزدهرة فى ميدان المعارف الدينية · أخذ فى تلك المدينة عن أستاذه الكبير المتكلم الاباضى أبى يعقوب الوارجلانى المتوفى سنة 570هـ/1174 م ، وكان أبو يعقوب الوارجلانى ذا اطلاع واسع على شتى أنواع المعارف وعلى الثقافة الاسلامية فى ذلك العصر حيث انتقل الى الاندلس وأقام بمدينة قرطبة فى عهد الموحديـن أصحاب النزعة العقلية والاجتهـــاد ، وهنالك درس علوم اللسان والقرآن والحديث والتنجيم فكان أهل عصره يشبهونه بالجاحظ ·

وألف من الكتب كتاب «العدل والانصاف» فى اصول الفقـه فى ثلاثة اجـزاء ، وتوجد عند الاباضية الى اليوم فى الجزائر نسخ متعددة (1)، وألف كذلك كتاب «الدليل لاهل العقول » فى ثلاثة اجزاء طبعت فى مجلد واحد طبعا حجريا بالقاهرة سنة 1306 هـ، ـ 1888 م ، تحدث فيه عن الآراء الكلامية والفلسفية وعن الرياضيات والفلك ، ورتب ايضا كتاب «مسند الربيع بن حبيب البصرى» الذى طبع الطبعة الثانية بمصر سنـة 1349 هـ ، بالمطبعة السلفية وضم اليه بعض روايات الربيع عن ضمام عن جابر بن زيد وروايات ابى سفيان عن الربيع ، وروايات جابر بن زيد (2) وينسب اليه كتاب «مرج البحرين فى الفلسفة والمنطق والهندسة والحساب» ونقل الينا الشيخ ابو اليقظـــان انه ترجم الى اللغات الاروبية ولكننا لم نقف على ذلك ولم نعرف اللغة التى ترجم اليها، وله قصيدة تسمى الحجازية تقع فى 360 بيتا ، ويبدو انه انشاها حين قصـد الحجاز للحج فجادت قريحته بها فى تلك الربوع المقدسة ، وله كتاب فى الفقه لم اقف عليه ، وينسب اليه تفسير للقرآن يقال انه يقع فى 700 ورقة به تفسير فاتحة الكتاب وسورة البقرة وآل عمران ، وغلب على ظن البرادى ان ابا يعقوب ألف تفسيره للقرآن فى ثمانية اسفار مثل السفر الذى رآه ووقف عليه (3) ، وله كتاب فى التاريخ يدعى «فتـــوح

(1) اطلعت على نسخة لدى الاستاذ صدقى ايوب اليسجنى وقد شرحه القطب واختصره الشماخى ·

(2) عبد الله بن حميد السالمى ، حاشية مسند الربيع ، مطبعة الازهار البارونية ، القاهرة 1326 هـ ، جزء 1 ص : 3 ·

(3) البرادى ، الجواهر ، مطبعة محمد يوسف البارونى ، القاهرة 1302 هـ ، ص : 220

المغرب» ترجم فيه للاباضية ويذكر الشيخ ابو اليقظان انه توجد نسخة منه فى ألمانيا كما ذكر الشيخ اطفيش ابو اسحاق فى كتابه «الدعاية الى سبيل المؤمنين» (4) ، وله رسالة فى رجال مسند الربيع ، وترجمة لرجال الاباضية ، كما له أجوبة وفتاوى كثيرة لو ترجمت لكونت سفرا كبيرا فى الفقه ٠

وقد استطاع ان يكتشف خط الاستواء قبل ان يكتشفه غيره من الاروبيين ، فى رحلة له اليه ذكرها فى كتابه «الدليل والبرهان» وبالجملة فان ابا يعقوب الوارجلانى يعتبر من الفلاسفة الاباضيين الذين اكتسبوا معارف واسعة سواء فيما يتصل بالمذهب الاباضى او بغيره من المذاهب والآراء والعلوم الرياضية والطبيعية المعروفة فى عصره ، ويعتبر من أكبر رجالات الرياضيات فى المغرب العربى ٠

بعد ان اخذ ابو عمار عن شيخه ابى يعقوب ارتحل الى تونس ودرس هناك على اساتذة كثيرين ، وكانت تونس فى عهد الموحدين فى غاية من النشاط العلمى والثقافى فاستفاد من تلك البيئة العلمية الزاخرة واخذ علوم اللسان العربى وآدابه والعلوم الاسلامية المختلفة ، وعرف فى دراسته تلك بالجد والنشاط ، وكانت اسرته ذات ثراء ولذلك فانها كانت ترسل اليه الف دينار كل سنة فيعطى نصفها الى شيخه الذى يدرس عليه ويصرف النصف الآخر فى شؤونه الخاصة ، ويحكى انه كانت تأتيه كل عام رسالة مع المرتب المالى ولكنه كان لا يقرأ ما يرد عليه من رسائل ويحفظها عنده ، وعند ما أتم دراسته أخذ فى قراءتها فوجد فى الاولى نبأ وفاة احد والديه وفى الثانية نبأ وفاة الثانى فما كان منه الا ان ودع اساتذته واصدقاءه وقفل راجعا الى وطنه ، ويذكر صدقاؤه انه كان ذا أخلاق عالية ، سريع الفهم ، سخى النفس ، شديد الورع ، وكانوا يدرسون معه كتاب «الدعائم» وينسب اليه البدر الشماخى والدرجينى فى طبقاتهما عدة كرامات (5) ويذكر الدرجينى ان سبب سفره الى تونس التى أقام بها اعواما

---

(4) المطبعة السلفية القاهرة 1342 وتوجد منه نسخة فى تركة المستشرق موتيلانسكى ٠
(5) البدر الشماخى ، السير ص : 442 ٠ الدرجينى **مخطوط الشيخ ابن يوسف** بالجزائر العاصمة ص : 444 رسالة الشيخ أبى اليقظان الى صاحب هذا المقال سنة 1968 ص : 11 ٠

للدراسة يعود الى امرين : الاول ابتعاده عن شواغل الاهل ، والثانى انه اراد اصلاح لسانه وتقوية ملكته فى اللسان العربى بالابتعاد عن اللسان البربرى الذى يتحدث به أهل بلده وارجلان ·

والواقع ان كتابه «الموجز» يشهد له بقوة الاسلوب وجزالته وصفاء عربيته ومتانة ألفاظها ودقة دلالاتها على معانيها · ويذكر المترجمون له انه سئل عن القدر وعن اليقين فقال : (اليقين صحة الاعتقاد وهو من افعال القلب ومن افضل افعال العبادة) وأجاب عن القدر فقال : (القدر ما قدره الله قبل ان يكون)·(6) وكان ابوعمار محبا للسلم بين المسلمين كارها للفتن وسفك الدماء ، وعبر عن رغبته هذه فيما يذكره الدرجينى الذى قال : «اذا وقعت الفتنة بين فئتين من المؤمنين فالاحب الي ان يصطلحوا فان لم يفعلوا فالاحب الي ان لا تغلب فئة فئة فان من احب ان تغلب احداهما الاخرى فقد دخل فى الفتنة ، ولزمه ما لزم اهل تلك الفتنة وكان سيفه يقطر دما» · (7)

اما ما يتعلق بتاريخ وفاته فانه غير معروف ولكن يقع فى الراجح قبل سنة 570 هـ ـ 1174 م وهى السنة التى توفى فيها شيخه ابو يعقوب الوارجلانى ، ذلك انه وردت الى ابى عمار رسائل من عبد الوهاب بن محمد بن غالب بن نمير الانصارى من غانة ليجيب عن اسئلة وردت فيها فتوفى ابو عمار قبل ان يتمكن من الجواب عنها ، فتولى الاجابة عن ذلك شيخه ابو يعقوب الوارجلانى قبل وفاته سنة 570 هـ · 1174

لقد كان للاباضية نشاط واسع من الناحية الدينية والثقافية والاقتصادية فى افريقيا ، فكانوا يقومون بتجارة التبر والدعاية للدين بالفعل والقول،ويقول ابواليقظان ان ابا عمار توفى فى وارجلان وقبره معروف باسمه فى هذه المدينة الى اليوم اذ ان له مقاما يزار ، وذكر انه وقف عليه ورآه ، وهو عبارة عن «غار منحوت فى ربوة الجبل

(6) الدرجينى طبقات المشائخ بالمغرب تحقيق ابراهيم طلاى ، مطبعة البعث ، قسنطينة (الجزائر) (1974) ص : 488 ·
(7) المصدر نفسه ، ص : 491 ·

قدر ما يقف فيه المصلي ويأوى مجلس نحو عشرة رجال» (8) · وجرت عادة الاخـوان الاباضيين ان يقوموا بزيارته ربيع كل سنة (9) ويعده الشيخ محمد بن يوسف اطفيش من أهل الخمسين الاولى من المائة السادسة (10) مع استاذه أبى يعقوب الوارجلانى ·

ب ـ مؤلفاته : يعتبر أبو عمار من الذين أحيوا المذهب الاباضى تأليفا وتعليما ، وهو من أعظم مؤلفى الاباضية مقدرة على الجدل والنظر وأكثرهم عمقا فى التفكير ، وتنظيما للمذهب فى نسق عقلى دقيق متماسك ، وهو لا يقل عن متكلمى المعتزلـة والاشاعرة والشيعة مقدرة على التأليف واحاطة بالمذاهب ودفاعا عن العقيدة ونصرة لهـا ·

ينسب الى أبى عمار أنه ألف كتاب الاستطاعة ، وقد أشار فى آخر كتابه « الموجز » الى أن الاستطاعة تستحق أن يفرد لها كتاب (11) ، ونسب اليه البدر الشماخى أيضا كتاب « شرح الجهالات » (12) وتوجد منه نسخة فى دار الكتب المصرية مخطوطة (13) وخطها ردىء جدا ، وبها شطب ولا تكاد تقرأ وهذا الكتاب عبارة عن أسئلة وأجوبة فى العقائد وغيرها على طريقة المذهب الاباضى به 59 ورقة تحت رقم 22293 ب · أما كتابه « الاستطاعة » فلا أعرف أنه موجود أو غير موجود ، وأغلب الظن أنه مفقـود ، وينسب الى أبى عمار أيضا ثبت باسماء شيوخ الاباضية وتراجمهم ، ويعتبره عـلى يحيى معمر من مؤرخى الاباضية · (14)

ومن أهم مؤلفاته كتاب « الموجز » فى علم الكلام نسبه اليه البـدر الشماخى (ت 928هـ/1521م) فى السير (15) ، حيث وصف أبا عمار بأنه آية فى علم الكلام

(8) الشيخ أبو اليقظان ، الاباضية فى شمال افريقيا مخطوط لدى مؤلفه بالقرارة جنوب الجزائر وأورد هذا النص منه فى رسالته الى بتاريخ 1968 ، ص : 17 ·
(9) المصدر نفسه.كما حدثنا بذلك الشيخ ابن يوسف بمدينة الجزائر سنة 1968 ·
(10) محمد اطفيش ، تواريخ أهل وادى ميزاب ، الجزائر 1326 هـ ·
(11) الموجز ، ص : 193 ، البدر الشماخى ، السير ، ص : 441 ·
(12) البدر الشماخى ، السير ، ص : 441 وذكر أنه يقع فى سفر واحد ·
(13) Lewicki (T.), Mélanges Berbères Ibadites, REI, 10 (1936), p. 271.
(14) على يحيى معمر ، الاباضية فى موكب التاريخ (الاباضية فى تونس) بيروت 1385 هـ ـ 1966 م ، ص : 194 ·
(15) السير ، ص : 441 ·

وبانه ألف فيه : « الموجز فى الرد على من خالف الحق فى جزئين » (16) كما نسبه اليه الدرجينى فى طبقاته فقال : « وهو الذى أزرى بموجزه عـــلى الماضين وأتعب الحاضرين والآتين فانه رتب مقدماته أرتب تقديم وقوم فصوله أحسن تقويم وقسم الفرق أبين تقسيم بألفاظ عذبة وقصد مستقيم » (17) ، ونقل منه عبد العزيز المصعبى اليسجنى فى كتابه « معالم الدين » المخطوط الموجود بدار الكتب المصرية تحـــت رقم 1960 ب ، وقال : « ومن هنا تعلم معنى قول الشيخ أبى عمار فى الموجز » (18) ، كما نسبه اليه أبو اليقظان ابراهيم فى كتابه « الاباضية فى شمال افريقيا » فقال : « صاحب كتاب الموجز فى علم الكلام فى جزئين ناقش فيه فرق المذاهب الاسلاميـة وحاجج فيه كثيرا من الدهريين وناقشهم فى سائر مقالاتهم الرائعة المنحرفة بحججه الدامغة وبأسلوبه الرشيق الحكيم المبنى على محاصرة الخصم بالقائه فى شبكات من أسئلة لالزامه الحجة حتى لا يجد له محيصا ولا مفرا » (19) ، ولم يشـك أحـد من الاباضية فى أن الكتاب لابى عمار عبد الكافى بل ان البرادى ذكره فى تقييده لكتب الاباضية ونص على ذلك بقوله : « وكتاب الموجز للشيخ ابى عمار بن أبى يعقـوب التناوتى الوارجلانى » (20) ، وأضاف الى ذلك نسبة كتبه الاخرى اليه فقـــال : « وشرح الجهالة له أيضا وكتاب الفرائض ويذكرون كتابا فى الفروع من تأليفه لـم أقف عليه » (21) ، وأما المخطوط الآخر للبرادى نفسه فانه نص فيه على كتاب الموجز وشرح الجهالات فقط فقال : « ولابى عمار رضى الله عنه كتاب الموجز وكتاب شرح الجهالات سفر آخر له » (22) ، وقد قمنا بتحقيق هذا الكتاب على ثلاث نسخ : نسخة دار الكتب المصرية ونسخة الاستاذ صدقى محمد بن أيوب اليسجنى ونسخة الاستاذ صالح خباشة وكلاهما من اباضية الجزائر .

(16) المرجع نفسه ، ص : 441 .
(17) الدرجينى ، الطبقات جزء 2 ، ص : 485 .
(18) ورقة 276 .
(19) رسالة أبى اليقظان ، ص : 17 .
(20) تقييد كتب أصحابنا للبرادى مخطوط دار الكتب، ورقة : 208 .
(21) المصدر نفسه ، الورقة نفسها .
(22) مخطوط رقم 8456 ، ورقة : 113 .

ان كتاب الموجز يمثل مرحلة نضج علم الكلام ويمدنا بصورة نسق متكامل لمذهب الاباضية الكلامى ، وليس أبو عمار أقل من أبى بكر الباقلانى عند الاشاعرة ولا أقل من ابن حزم فى نقده ورده على الفرق والفلاسفة ، وتظهر فى هذا الكتاب صورة واضحة القسمات للمذهب الاباضى وللفكر الفلسفى لدى أبى عمار عبد الكافى الذى اتخذ منهجا عقليا قويا فى نقده واستدلاله مما يدل على اصالة هذا المفكر وعمق تحليله وغوصه على حقائق مختلف الاتجاهات الفلسفية والكلامية فى تاريخ الامة الاسلامية · ولا نريد أن نطيل فى بيان قيمة هذا الكتاب واهميته فى تاريخ الفكر الاسلامى فى الجزائر لاننا حللناه بما فيه الكفاية فى رسالتنا عنه لنيل الماجستير التى هى معدة للنشر ·